

# الثقافة والتنمية والتحول المجتمعي نحو الديمقراطية

ملخص التقرير النهائي



# الثقافة والتنمية والتحول المجتمعي نحو الديمقراطية ملخص التقرير النهائي

الإهداء

إلى رجع حسان عبا، الإنسان، الإنسان.

## المشروع

"سفير" هو برنامج طموح موجّه لصالح الشباب وأهداف التنمية المستدامة في 9 بلدان من شمال أفريقيا والشرق الأوسط، وهي: لبنان، سوريا، الأردن، فلسطين، مصر، تونس، المغرب، ليبيا والجزائر. يضم مشروع "سفير" بدعم من المعهد الفرنسي والاتحاد الأوروبي، خمسة أطراف هي: **شبكة المنظمات العربية غير الحكومية للتنمية، Agence Universitaire de la Francophonie | Canal France International | Pitchworthy | LE LAB'ESS.**

في إطار هذا المشروع، نفذت شبكة المنظمات العربية غير الحكومية للتنمية دراسة دور الثقافة في التنمية وفي عملية التحول المجتمعي نحو الديمقراطية وحقوق الإنسان في البلدان العربية جنوب المتوسط. أعد الأوراق البحثية الرئيسية خمس باحثات وباحثين رئيسيين هم الدكتور حسان عباس، السيدة جيهان أبو زيد، السيدة اعتدال مجبري، السيدة مينة حوجيب، والسيدة جنى الدهيبي. وتولى السيد أديب نعمه مهام التنسيق العلمي وكتابة مسودة التقرير النهائي. وقد ساهم في تطوير وإعداد ومراجعة هذا العمل البحثي فريق عمل شبكة المنظمات العربية غير الحكومية للتنمية والمعهد الفرنسي في باريس.

## منهجية التقرير

استغرق إنتاج هذه التقرير خمسة عشر شهراً من العمل المتواصل (من نيسان 2020 حتى تموز 2021)، وفق ثلاث مراحل: أولاً، المرحلة التحضيرية (الورقة المفاهيمية واختيار الباحثين وتحديد المنهجية)؛ ثانياً، إعداد خمس أوراق خلفية اعتمدت منهجية بحث مركبة تشمل الطرائق الآتية:

- البحث المكتبي؛
  - البحث التشاركي من خلال مقابلات مع ذوي اختصاص أو مع شباب وشابات ونشطاء معنيين، ومجموعات النقاش المركز (بشكل أساسي في دراسات الحالة)؛
  - شبكات تحليل المضمون، (بشكل خاص في البحث الخاص بالفضاء الافتراضي وصفحات فيسبوك وانستغرام).
- ثالثاً، إعداد التقرير النهائي استناداً إلى المادة المنتجة والمجمعة في المرحلة الثانية، تضمن تحليلاً ثانياً للمادة المتوفرة من مدخلين: الأول موضوعاتي *thématique*، والثاني مستند إلى دراسات الحالة/المكان *étude de cas/spatial*. واتبع التقرير النهائي منهجية تركيبية وتحليلية، مع إيلاء أهمية خاصة للجانب النظري والمفاهيمي.

يمكن الاطلاع على التقرير كاملاً على الرابط: [https://annd.org/uploads/publications/Culture\\_development\\_and\\_social\\_transition\\_towards\\_democracy\\_-Ar.pdf](https://annd.org/uploads/publications/Culture_development_and_social_transition_towards_democracy_-Ar.pdf)

# افتتاحية

"البلد لسه بخير.... إذا بلد كامل بيطلع بجنازة شاعر!"، يقول المواطن الدمشقي في مشهد جنازة الشاعر نزار قباني في مسلسل الفصول الأربعة للمخرج والفنان حاتم علي. المشهد نفسه ارتسم في الشام/دمشق في اليوم الأول من عام 2021 في جنازة **حاتم علي** نفسه الذي رحل قبلها بأيام (29 آذار/مارس 2020). الآلاف ساروا في جنازة يلفها حزن صادق وشامل في بلد ممزق بالحرب ومثقل بالمتاعب وبوباء كورونا. حاتم علي كان أقوى من الانقسام والكراهية والحرب: أتى بهم كلهم إلى وداعه. هذا سرّ الفن والثقافة.

عرفت البلدان العربية حالات مشابهة في جوهرها مع اختلاف الأحجام والنطاق الجغرافي. جنازة الشاعر التونسي **محمد الصغير أولاد أحمد** (توفي في 5 أبريل/نيسان 2016) كانت تظاهرة للحرية وكسر التقاليد الذكورية حيث رافقته نساء تونس إلى مثواه. ريم البنا الفنانة الفلسطينية (توفيت 24 مارس 2018)، لامست في موتها قلباً فلسطينياً كثيرة، فتحولت جنازتها إلى سيمفونية لحب فلسطين والحرية. ومثلها على الضفة الأخرى للبحر المتوسط كان لـ"إيدير" Idir (من أشهر الفنانين الأمازيغ الجزائريين توفي 3 أيار/مايو 2020) التأثير نفسه في إثارة مشاعر الامتلاء فرحاً وشجناً لاسيما في أغنيته الشهيرة A Vava Inouva في ما يشبه السحر.

قبل ذلك بعقود، وفي الثالث من فبراير/شباط 1975، وكما كانوا دائماً على موعدهم الأسبوعي لسماعها تغني، كان أكثر من 4 ملايين مصري (يوأكبهم عشرات الملايين على وسائل الإعلام) يودعون كوكب الشرق **أم كلثوم** في جنازة لم تماثلها سوى جنازة الزعيم التاريخي **جمال عبد الناصر**. لكأن الفنانين - بما هم تجسيد للثقافة - يختزنون في إبداعهم خلاصة جيل أو شعب أو عصر بأسره؛ وكأن ليس أصدق من الثقافة تعبيراً عن الهوية والقيم والأحلام.

لسنا نحتفل بالموت والمآتم، بل إن الموت نفسه ليس سوى مناسبة للاحتفاء بالحياة التي كانت الثقافة ومبدعوها يختزنون دفقها الذي لا ينتهي، ينشرونها فرحاً وأملًا ومشاعر وسلوكيات من كل نوع بين الناس - كل الناس - بما يجعلهم أكثر قدرة على الفعل والتأثير في حياتهم وحياة مجتمعهم. يتعلق الأمر إذا بالحياة، وبالثقافة بما هي حياة يومية لعموم الناس، وبما هي إبداع نخب متنوعة المشارب والاهتمامات استطاعت أن ترسم ملامح ظاهرات وحركات شديدة الغنى، عابرة للحدود وعابرة للزمن.

ولأن الثقافة حياة وممارسة أيضاً، فلا يمكن ونحن نعيش مرحلة ما بعد الربيع العربي (2011) أن نغفل آلاف الإبداعات والمساهمات غير القابلة للحصر التي قامت بها شبان البلدان العربية ونساؤها وسائر مواطنيها في ساحات الاعتصام من تونس إلى القاهرة واليمن... وصولاً إلى بيروت وبغداد والجزائر والسودان، وما واكبها من إنتاج فني وثقافي وإبداع، ومن سلوكيات وممارسات وقيم، سواء ما تجلى في الشوارع، أو ما شهده الفضاء الافتراضي من إبداعات لا تقل عنها أهمية. كلها أنتجت ثقافة - يمكن أن نقول عنها جديدة - على يد عشرات الآلاف من المواطنين والمواطنات، سوف تشكل من دون شك رصيماً غنياً جداً للتأمل والدراسة في معنى الثقافة وأثرها وهوية صانعيها.

هذا الاحتفاء بالثقافة استجلب أيضاً العداء. فما الذي يجعل حاكماً أو طرفاً في بلد أو سلطة ما، يقدمون على اغتيال رسام كاريكاتور مثل **ناجي العلي** لولا قدرته الأكيدة على التأثير في الناس (فنان فلسطيني اغتيل في

29 آب 1987)؟ أو لماذا يقدمون على إلغاء تعليم الفلسفة وقربيتها العلوم الاجتماعية، كما حصل في المغرب في الستينيات؟ وما الذي جعل أنظمة ذات جبروت، تخشى كل فضاء عام غير مراقب، فتراها تقوم كلها تقريباً، في الوقت عينه بسن قوانين تجرّم التعبير عن الرأي على وسائل التواصل الاجتماعي بحجة الأمن الوطني ومكافحة الإرهاب. تتخذ هذه المواجهة مع الثقافة أشكالاً متعددة تمارسها السلطة الممأسسة من خلال مؤسساتها، أو تتخذ أحياناً شكل مواجهات في قاعدة المجتمع كأنه تصادم لثقافات متعددة ضمن المجتمع الواحد. عن هذه الأسئلة وغيرها، هذا التقرير.

# الفصل الأول: الإطار المفاهيمي - وإشكاليات البحث

## 1- ثلاثة مفاهيم: الثقافة، التنمية، الديمقراطية

يتبنى التقرير تعريفاً للثقافة يعود في أصوله إلى التعريف الإنساني (الانثروبولوجي) المتوافق مع تعريف منظمة اليونسكو في المؤتمر العالمي للسياسات الثقافية في مكسيكو عام 1982، حيث عرّفت **الثقافة** بأنها: "مجمّل السمات المميزة الروحية والمادية والفكرية والعاطفية التي يتمتع بها مجتمع أو جماعة. وهي تضم، إضافة إلى الفنون والآداب، أساليب العيش والحقوق الأساسية للكائن البشري ومنظومات القيم والتقاليد والمعتقدات".

يميّز التقرير بين الثقافات الأولية (الموروثة) والثقافات الثانوية (الإرادية)، وينظر إلى أشكال التفاعل في ما بينها بصفته دينامية مفسرة للسياق العام لتطور الثقافة في المجتمع، لا سيما بين التقليد والحدثة، وبين قيم ماضوية وقيم حقوق الإنسان. وهو تفاعل صراعي محكوم بأولوية الوظائف السياسية والمجتمعية الراهنة في هذه المجتمعات أكثر مما هو امتداد بسيط للماضي الموروث.

أما **التنمية** فهي مسار للتطور المجتمعي يشمل خمسة أبعاد اقتصادية واجتماعية وبيئية، يضاف إليها البعدان السياسي والمعرفي/الثقافي. فالمعرفة والثقافة لا بد أن تُعاملان كبعد مستقل، لا يقل أهمية عن الأبعاد الأخرى، وإغفاله (مع البعد السياسي) هو من نقاط الضعف في التفسير السائد والجزئي للتنمية المستدامة.

بالنسبة إلى **الديمقراطية** وما يرتبط بها في جنوب المتوسط من مسارات تسمى "الانتقال الديمقراطي" بعد الربيع العربي، فلها مستويان: سياسي وهو الأهم، وتقني يمثل ما يندرج تحت مسميات الحوكمة الرشيدة والتحديث المؤسسي. وفي البلدان العربية جنوب المتوسط، المستوى السياسي هو الحاسم بامتياز بحكم طبيعة الدولة الغنائمية (النيوباتريمونيالية) التي تشكل مفتاح فهم ديناميات الصراع والتحول فيها والتي كثّفها المطلب الموحد لثورات الربيع العربي "الدولة المدنية الديمقراطية الحديثة". يمثل هذا المطلب الجواب التاريخي عن الأزمة الهيكلية في دول المنطقة، والعنوان الذي يجب التوجه إليه من دون أي التباس. يعني ذلك أن مطلب الديمقراطية والدولة المدنية وحقوق الإنسان، هي المطلب الشعبي الأكثر قوة وانتشاراً في دول المنطقة، وهو ما يقوض مقولة الإستثناء أو الإستعصاء الديمقراطي التي غالباً ما تطلق على بلدان المنطقة التي توصف بالركود والإستسلام القديري أمام الإستبداد. ويعني ذلك أيضاً أن وصف المرحلة الراهنة في هذه البلدان "بالانتقالية" جزئي، نظراً للطابع التأسيسي والتكويني لمسار التحول العميق الذي يتأسس عليه سياق الأحداث والتطورات.

## 2- الإشكاليات العالمية والإقليمية

لا تهتم السياسات العامة بشكل مباشر وصريح بالعملية الثقافية، بما هي عملية تساهم في مسار التنمية والتغيير، بقدر ما نلاحظ استخداماً أداتياً للثقافة يخضعها إما لمنطق الربح وآليات السوق والترويج الإعلامي من منظور استهلاكي؛ أو بما هي أيديولوجيا سياسية (دينية أو عقائدية أو هوياتية)، من أجل تكريس السيطرة وفرض مسارات محددة، واستخدامها أداة للتعبئة السياسية والتأثير في تشكيل السلطات ودعم خياراتها. يعتبر التقرير أن الإشكاليات الثقافية (وغيرها) التي تطرح نفسها في دول جنوب المتوسط العربية، لا تشكل شذوذاً عن الإشكاليات الكونية. ويتوقف بشكل خاص عند أربع ظاهرات/إشكاليات كونية هي:

1. التوسع الهائل في النزعة الاستهلاكية؛

2. صعود التيارات الشعبوية اليمينية؛

3. الإنكفاء نحو الهويات الفرعية؛

4. ما طرحته جائحة كورونا بالنسبة إلى مستقبل التنظيم المجتمعي وما عززته من ميول نحو التحكم بالحياة الفردية والعامّة، والميلول التكنولوجية المتطرفة، وترسيخ المقاربات الإقتصادية.

هذه الإشكاليات حاضرة بقوة في بلدان جنوب المتوسط العربية، تضاف إليها خمس إشكاليات إقليمية رئيسية:

1. الديمقراطية وحقوق الإنسان، ومسألة "الإستثناء الديمقراطي"؛

2. هيمنة الثقافة البطريركية - الذكورية ومكانة المرأة في المجتمع؛

3. الهويات الفرعية؛

4. التفكك المجتمعي والتدهور الثقافي الشامل الناجم عن الحروب والإحتلال؛

5. ضعف الإنتاج المعرفي والفني ونوعية التعليم، والعداء السياسي الرسمي للثقافة.

كل هذه الإشكاليات حاضرة بشكل مدمج في التحليل في مختلف أقسام التقرير، الذي يتبنى مقاربة غير نمطية متميزة عن السائد في أدبيات التيار الرئيسي.

## الفصل الثاني: السياق الإقليمي

### الربيع العربي

الإنفجار الكبير الذي حصل عام 2011 أتى في سياقه المنطقي والطبيعي. أما المفاجأة، أو حتى الصدمة التي عبّرت عنها معظم الأطراف إزاء الربيع العربي، فلا تعود إلى كونه أتى من خارج السياق، بل إلى **قصور الرؤى أو تجاهل عوامل التآزم التي كانت تتراكم، سواء لقصور معرفي أو لمصلحة أو لإسقاط تصورات ثقافية منحازة أيديولوجياً على مجتمعات المنطقة باعتبارها استثناء غير مؤهل أو غير قابل للتحوّل الديمقراطي أو الحدّثة.** ولا تخرج تحولات البلدان العربية عن مسار العولمة العام، بل إنها متّسقة مع المسار العالمي الذي عرف تراجعاً هامة عن منظومة قيم حقوق الإنسان، وعودة النزعة العسكرية والأمنية، وهيمنة النزعة الإستهلاكية على ما عداها.

تمثل مسألتا **الهجرة، وأنظمة التعليم** في بلدان جنوب المتوسط، تعبيراً عن عوامل هيكلية لا تزال فاعلة رهنها لها صلة مباشرة بموضوع التقرير.

### الهجرة: مجتمعات طاردة لشبابها ومواطنيها

التطورات التي استوطنت المجتمعات العربية جنوب المتوسط، والحروب والنزاعات العنيفة في عدد كبير منها حوّلت دول المنطقة إلى بلدان نابذة لسكانها، لا سيما الشباب والنخب المهنية والمتعلمة (دون إغفال هجرة القوى العاملة بشكل عام). **ولا يمكن إرجاع هذه الرغبة في الهجرة فعلياً إلى سبب واحد بشكل حصري.** وتُحدِث الهجرة تغييرات غير قليلة الأهمية في الوعي والسلوكيات لدى الساعي إلى الهجرة نفسه، وفي محيطه المباشر من أسرة وأصدقاء؛ كما أنها بتحوّلها إلى هجرة جماعية كثيفة تتسبب بدورها في تغييرات في الدول المستقبلية ومجتمعاتها، كما في الأفراد بسبب ما ينظر إليه أحياناً بأنه "صدمة حضارية" أو "صدمة ثقافية"، تطلق تحولات ثقافية في اتجاهات مختلفة.

عام 2020 عبّر 22% من سكان البلدان العربية عن الرغبة في الهجرة حسب تقرير المؤشر العربي. تستبطن اختيارات الراغبين بالهجرة للدول التي يفضلون الهجرة إليها مضامين مركبة أيضاً، لا تخلو من أبعاد ثقافية. وتظهر مقارنة نتائج المؤشر العربي بين عامي 2011 و2020 أن حصة أوروبا من الرغبة في الهجرة إليها **قد ارتفعت من 33% إلى 38%**، وحصة الدول "الغربية" (أوروبا وكندا وأميركا) ارتفعت من 51% إلى 58%. **في المقابل انخفضت الرغبة في الهجرة إلى الدول العربية 14 نقطة مئوية من 31% إلى 17%** (الرغبة في الهجرة إلى دول الخليج انخفضت من 16% إلى 12%<sup>1</sup>. **والتفضيل الواضح للسفر إلى أوروبا وكندا وأميركا، يخالف التصور النمطي السائد عن حالة من النفور الثقافي والحضاري بين الشرق والغرب** (واستطراداً بين المسيحية والإسلام في بعض الأيديولوجيات الثقافية).

"... الإنسان بحاجة إلى هوية واضحة كي يكون منتبهاً إلى جماعة تحميه - مثل الطائفة أو الدين - لكن في ألمانيا، الدولة تحميني بالقانون بغض النظر عن انتمائي العرقي أو العرقي. أنا محمي وفق مبادئ حقوق الإنسان، لكن في سوريا كنت بحاجة إلى أن أكون منتبهاً إلى طائفة وعائلة"  
جميل: شاب سوري هاجر إلى ألمانيا بعد 2011

ولا تتعلق الهجرة بانتقال مكاني/جغرافي بالمعنى الفيزيائي، بل هو انتقال إلى مجال مجتمعي - ثقافي يتميز باتساع هامش الحرية المحمية بالقانون، وهو ما يتيح فرصاً للتفتح الثقافي متعدد الخيارات كان مقتصراً في البلد

<sup>1</sup> المؤشر العربي 2020/2019 في نقاط. المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة: 2020. Arab-Opinion-Index-in-Brief-AR.pdf-20-2019-<https://arabindex.dohainstitute.org/AR/Documents/The>

الأصلي. كما أن الأمر لا يتعلق بانقلاب ثقافي في ثقافة الفرد (أو المجموعة المهاجرة) بقدر ما إن هذه العناصر الثقافية التي برزت في البلد المضيف كانت كامنة على الأرجح في بلد المنشأ، إلا أنها كانت ممنوعة قسراً من النمو والإكتمال والظهور العلني.

## تعليم يعزز الثقافة المحافظة

الأنظمة التعليمية في البلدان العربية لا تزال تقليدية، وتعتمد مناهج تلقينية لا تشجّع على الإبداع وحرية التفكير والنقد، وتفتقر إلى آليات تفاعل ومشاركة بين التلامذة والهيئة التعليمية والإدارة والمجتمع. كما أن المناهج لا تواكب العصر لا من الناحية العلمية والتكنولوجية، ولا من ناحية القيم والمفاهيم التي تنقلها إلى التلاميذ، لاسيما قيم المواطنة وحقوق الإنسان.

تحسّنت عموماً معدلات الالتحاق في بلدان المنطقة خلال العقدین الأخيرين، إلا أن المشكلات المتعلقة بنوعية التعليم أكثر خطورة، حيث إن 50% فقط من الطلاب الذين يتّمون المرحلة الأولى من التعليم الثانوي يتمتعون بالحد الأدنى المطلوب للكفاءة في مادة الرياضيات؛ وينتهي 40% فقط من الطلاب مرحلة التعليم الثانوي<sup>2</sup>. كما "جاء ترتيب طلاب منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا من بين أدنى المراتب على نحو مستمر في هذه التقييمات (العالمية الخاصة بالإنجاز التعليمي).

## تعليم الطاعة والإمتثال

يشير تقرير البنك الدولي "توقّعات وتطلّعات: إطار جديد للتعليم في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا"<sup>3</sup> إلى أن نظام التعليم في هذه البلدان يتعرّض للإعاقة بفعل الأعراف السلوكية والتنازعات. وتميل الأنظمة التعليمية - بحكم طابعها التقليدي الغالب - نحو ترجيح التقليد، والإنضباط، والشهادات، والسيطرة، على المعايير الأكثر انسجاماً مع التوجهات الحديثة.

"... الدولة اليوم يقلقها إنسان يفكر خالياً من القيود ويتبع القواعد العلمية. يقلقها إنسان يقول لا على واقع قائم كالدجى. لكن للأسف نجحت في ذلك نتيجة عدم إعمال العقل".  
رحمه: تلميذة من تونس

كما يرى تقرير لإسكوا "أن نظام التعليم في المنطقة العربية قد صمّم لإبطاء عجلة التغيير الاجتماعي... ولم تكتف الأنظمة الإستبدادية بوضع المناهج التعليمية التي تسعى إلى غرس القيم المحافظة في نفوس الطلاب، بل استخدمتها كأداة لتلقين المعتقدات"<sup>4</sup>.

إضافة إلى ما سبق، ثمة نقطتان هامتان تتركان تأثيراً كبيراً على التكوين الثقافي للمتعلمين:

**1- النقطة الأولى هي الفصل بين الذكور والإناث في المدارس حيث يطبق هذا النظام، بما يرسّخ الصور النمطية والتمييز الجنوسي/الجندي، وتكريس فكرة الغربة والتباعد بين الجنسين، وهو في صلب التفكير الذكوري.**

**2- والنقطة الثانية هي أنه نادراً ما يسمح بتشكيل مجالس طلابية في المدارس (والجامعات)، أو تكون شكلية، وهذا يعني أن الشاب أو الشابة، يتخرجان من الثانوية من دون أي تجربة حياتية معاشة في المشاركة في إدارة المؤسسة، وهي تجربة ديمقراطية جنينية ضرورية، ولا اختبرا الحوار والتفاوض مع من هم أقرب إلى كونهم سلطة عليا في المدرسة.**

<sup>2</sup> التقرير العربي للتنمية المستدامة 2020. إسكوا.

<sup>3</sup> توقّعات وتطلّعات إطار جديد للتعليم في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، البنك الدولي، ٢٠١٧.

<sup>4</sup> تقرير التنمية الاجتماعية العدد الثاني: اللامساواة والاستقلالية والتغيير في العالم العربي. إسكوا، 2017. [3NGQ04A/HTTPS://BIT.LY](https://bit.ly/3NGQ04A)

## الفصل الثالث: تحليل الإشكاليات الرئيسية (المدخل الموضوعاتي)

يعتمد هذا الفصل المدخل الموضوعاتي للتحليل، ويغطي خمس إشكاليات هي: الهوية - الدين - الديمقراطية - المساواة بين الجنسين - الثقافة الاستهلاكية.

### 1. إشكالية الهوية

يحتوي تشكّل الدولة - الأمة على مكوّن رمزي يجعل الإنتماء إليها بمثابة **هوية وطنية**، وانتماء مشترك مع باقي المواطنين يحدّدهم كجماعة - شعب. هذه الهوية **حديثة التشكّل تتجاوز الهويات التقليدية الموروثة من مرحلة ما قبل الدولة الحديثة (ولا تلغيها)**. إلا أن عقود العولمة المتسارعة أدّت إلى نشوء أزمة في الهوية الوطنية الحديثة، وحقّقت بروز هويات أخرى فوق دولية supra-etatique، ودون دولية infra-etatique من كل نوع، لاسيما انتعاش الهويات الفرعية الموروثة من فترات ما قبل الحداثة وما قبل تشكّل الدولة المدنية الحديثة، أكثرها حضوراً:

- **الهويات العائلية - العشائرية - القبلية**، واستطراداً الهويات التي لها طابع مكاني محلي، وهي تقوم أساساً على رابط القرابة؛

- **الهويات القومية أو الإثنية أو العرقية**، وترتبط بها أحياناً خصوصية لغوية (لغة خاصة للجماعة المعنية)؛

- **الهويات الدينية أو الطائفية**.<sup>5</sup>

والهوية في معناها الشائع تعبير عن جوهر "ثابت" في الشخص، تمثّل - في رأيه أو رأي الجماعة - ماهيته الأصيلة وثقافته العميقة المترسخة التي تحدّد مواقفه وسلوكه، وهي تبدو له كأنها معطى طبيعي غير مكتسب من خلال مسار حياته الفردية وسياق العلاقات الاجتماعية التي تساهم في تشكيله كفرد اجتماعي. وتتحوّل الثقافة - بما هي وعي ممارسة ونمط حياة - إلى هوية عندما تتخذ مضموناً كلياً في التكوين الفردي والجمعي للشخص المعني. وحين تتضاءل المسافة الفاصلة بينه كفرد وبين الجماعة التي ينتمي إليها، **تكون الهوية عادة هوية جماعية أكثر مما هي هوية فردية**. فالهوية الجمعية - كما نراها متجسدة في الممارسة الغالبة - هي التعبير عن الأنا الجمعي المغاير/المخالف/المناقض للآخر الجمعي.

الأساس الموضوعي لتعدد الهويات متوفر في المعطى الاجتماعي التاريخي لمجتمع ما. ويحصل أن يكون لهوية فرعية وظيفية راهنة تتغلب على الهويات الأخرى، لاسيما الهوية الوطنية المدنية الحديثة، سواء لجهة الدفاع عن الإمتيازات، أو - وهو الحالة الغالبة - تكوّن هذه الهوية آليات للتضامن والتعاقد ضد ما يعتبر ظلماً أو تمييزاً من قبل السلطة أو "هوية" أخرى مهيمنة.

الهويات الأولى ليست هي التي تحدّد طبيعة الدولة والعلاقات الاجتماعية، بل إن الثانية هي التي تحدد الأولى إلى حدّ بعيد، مع العلم أن الهويات الجديدة لا تلغي القديمة، بل تحوّلها وتغيّر في تراتبيتها في الحياة العامة، وتعّدّل وظائفها، أو على الأقل ثمة تأثير متبادل بين الإثنين.

يقول **جميل** (الشاب السوري المهاجر المقيم في ألمانيا التي هاجر إليها بعد 2011): "قبل اندلاع الثورات كنت السوري، وممثل المسرح، والشاب المسجون داخل قائمة طويلة من الهويات التقليدية المفروضة عليّ ولم

<sup>5</sup> لا بد من الإشارة أيضاً إلى الهوية الجنسية أو الجندرية التي لها أهمية إلى جانب الهويات الثلاث المذكورة. إلا أن هذه الهوية الرابعة لها وضعية خاصة وهي تخترق الهويات الأخرى، بما في ذلك الهويات المدنية الحديثة، وترد لاحقاً في التقرير.

أخترها. وحين انطلقت الثورة، ظهرت على السطح هوية الناشط السياسي والفاعل في الإغاثة والفنان، وبقيت الهويات الأخرى، لكن تغيّرت مواقعها. الظروف المتغيرة تعزّز هوية ما داخلنا وتدفن أخرى".

**تلعب المبادئ الكلية النازمة للحياة المجتمعية والدولة (مثل وجود دستور ومنظومة قانونية توفر الحماية للجميع) دوراً حاسماً في التحول من التعرف إلى الذات كعضو غير متفرد في جماعة أولية (طائفة، عائلة... الخ)، إلى مواطن - فرد لا يحتاج إلا إلى حماية القانون.**

## الهوية والشباب بعد الربيع العربي

أدت الثورات العربية إلى ما يشبه الزلزال في علاقة الشباب بالهوية وهذا وثيق الارتباط بنظرة الحراك الشعبي إلى الأزمة التي تعاني منها البلدان المعنية بصفتها أزمة شاملة مع مكون ثقافي قوي جداً، فمطلب الكرامة

وإسقاط النظام، والحرية والعدالة الإجتماعية والعيش (الخبز) والعمل... كانت مترابطة في كلّ ضمني يهدف إلى التخلص من نموذج الدولة السائدة ومكونها الثقافي أيضاً، وما تفرضه من هويات فردية وجمعية مأزومة. إن احتواء أجندة التغيير على بعد ثقافي والسعي إلى نموذج مجتمعي جديد (الدولة المدنية الديمقراطية الحديثة)، هو

"... كنت خلال الثورة أعزّف عن نفسي بفخر بأني مصرية. كنت في تمام مع الهوية الجمعية التي سكنت ميدان التحرير والميادين الأخرى. ظننت أن هويتي الكثيرة كامرأة وكملحدة وكمصورة سوف تجد مساحات لها. لكن بعد انهزام الثورة عدنا نعرّف أنفسنا بأجزاء الهوية التي اضهدنا بسببها... عدنا نعرّف أنفسنا بما يعبر عن معارضتنا للنظام... توقفت عن تعريف نفسي بأني مصرية...".

نور - مصر

عامل أساسي في طرح إشكالية الهوية بما هي قضية أساسية في مسار التحول الذي سعي إليه المنتفضون في ساحات الربيع العربي.

تترسخ الهوية الفرعية وتتحول إلى هوية مهيمنة وأداة فعالية جمعية بمقدار ما تغيب الديمقراطية والعدالة الإجتماعية والمساواة في الحقوق، حيث تتحول إلى وضعية صدامية مع النظام السياسي والمجتمعي السائد الذي يفقد صفته الوطنية التضمينية. **وبمقدار ما تميل الدول والأنظمة والمجتمعات إلى الاعتراف الفعلي بالتنوع وبمبدأ المساواة وسيادة القانون والديمقراطية، بمقدار ما يتراجع طابع الصدام بين الهويات والمكونات الثقافية للمجتمع والبلد الواحد.**

## الهوية في زمن التكنولوجيا والإنترنت

عزّزت التكنولوجيا قدرات أي مجموعة صغيرة (أو كبيرة العدد) أن تتواصل مع الآخرين المشابهين في بقاع أخرى. إلا أن خصائص الفضاء الافتراضي لا سيما وسائل التواصل الإجتماعي، تجعل منه حيزاً لتجمع المتشابهين، ما يولّد دينامية خاصة لتطور أفكار ومواقف المنتسبين نحو التطرف والراديكالية، يساعدها في ذلك غياب الرقابة على المضمون (ما عدا استثناءات) والمحفزات للسير في هذا الاتجاه التي يضخها المسؤولون عن الصفحة المعنية أو الكتلة الأكثر تنظيماً فيها.

بهذا المعنى فإن فضاء التواصل الإجتماعي (واستطراداً الفضاء الافتراضي) ليس أكثر صدقاً في التعبير عن الواقع الفعلي، بقدر ما يمكن اعتباره منحازاً للأفكار الأكثر راديكالية في كل اتجاه، كما أن المضامين التي يحتويها غالباً ما تفتقد إلى الإتساق الداخلي. إلا أن هذا الفضاء، للأسباب عينها التي سبق ذكرها، يمثل أيضاً مصدراً هاماً للبحث في الديناميات واتجاهات الرأي التي تتكوّن في فعر المجتمع وعلى هامشه، وبين أوساط الفئات العمرية الأكثر استخداماً له (الشباب والمراهقين)، والتي هي أحد مكونات الصورة الواقعية للمجتمعات والثقافة دون أن تختزلها كلها.

## 2. إشكالية الدين

يلعب الدين دوراً هاماً في الحياة المجتمعية والسياسية في بلدان جنوب المتوسط. إلا أن ثمة منزلقات كثيرة يمكن أن تدفع للخروج عن الموضوعية نحو فهم مؤدلج يقوم على مفارقات أو مبالغات.

نشير تحديداً إلى المقاربات التي تعزل الدين عن إطاره السياسي (وظائفه السياسية الراهنة كأيدولوجيا)، أو تعزله عن الثقافة والعامل الثقافي في تكوينه الكلي؛ وكذلك اختزال الدين في دين بعينه (هو الإسلام) بما يغفل وجود أديان أخرى (مسيحية ويهودية وبهائية وغير ذلك)؛ **وكذلك عدم لحظ الإنتماءات الطائفية أو المذهبية التي تبدو فاعليتها أكثر قوة من الإنتماء الديني العام** (مثلاً الطائفية في لبنان والعراق ودورها السياسي والثقافي، أو الإنتماء المذهبي الشيعي أو السني الأكثر حضوراً في صراعات المنطقة مع مضمونه السياسي الذي يتغلب على الإنتماء إلى الدين المشترك الذي هو الإسلام). ويجب ألا نتجاهل أن دور الدين - الطائفة يشمل الإسلام والأديان الأخرى لاسيما المسيحية حيث لديهم وجود محسوس ومؤثر (لبنان، مصر...)، أو اليهودية (وأمامنا نموذج شديد التطرف في دولة إسرائيل التي تعرّف نفسها كدولة دينية أساساً).

فالدين ليس جوهراً ثابتاً جامداً في الزمن، ولا هو مبدأ مفسر لكل شيء (تقريباً)، بل هو ظاهرة اجتماعية تاريخية وثقافية تحتاج بدورها إلى تفسير من خلال وضعها في سياقها المتحول ووظائفها الراهنة، وعدم التعامل معها كمعطى ثابت وبسيط ومسطح.

### بدايات تحول بعد الربيع العربي؟

يقول حوالي نصف الشباب العربي 45% أن الدين يفقد تأثيره في منطقة الشرق الأوسط: "أتفق مع القائلين إن الدين فقد الكثير من تأثيره عقب الثورات العربية". هكذا يجيب رامي (شاعر مصري نوبى الأصل يعيش في القاهرة) ويصف الثورات بأنها كانت بالأصل ثورة على الثوابت السياسية والمسلمات الفكرية. فكان من نتائجها إعلان مجموعات من الشباب عن شكوكهم الدينية، بل وإعلان بعضهم جهرًا عن تخليهم الفعلي عن الدين، مستشهداً "بحالة التخلي الواسعة عن الحجاب التي شهدتها المجتمع المصري وما زال والتي بدأت بخجل في الأشهر التالية للثورة ثم ما لبثت أن انتشرت في المحافظات، وإن لم تطل القرى التي يغمرها الحجاب كرمز ثقافي أكثر منه رمزاً دينياً".

ينفاوت التقييم بين بلد وآخر، **فسناء** النسوية التونسية ترى مثلاً أن علمانية تونس في عهدي بورقيبة وبن علي كانت مثل ورقة التوت التي تحجب الثقافة الدينية المترسخة بين الناس والتي برزت على السطح بعد الثورة (2011)، في حين أن محمد (الصحافي الليبي) يرى أن الثورة في ليبيا أدت إلى التشكيك في كل المعتقدات السائدة، دينية كانت أو قبلية أم موقفاً من المرأة.

### خصائص التدين في استطلاعات الرأي

التمييز بين التدين الاجتماعي والتدين المسيس والمؤدلج ضروري من أجل فهم دور الدين في المجتمع. في تقرير المؤشر العربي لعام 2020/2019<sup>6</sup> يعرّف 40% من المستجيبين الشخص المتدين بأنه الذي يمارس الفروض والعبادات بانتظام (**وجه طقوسي**)؛ في حين اعتبر 30% أن أهم خصائص المتدين أخلاقية وهي تمتنعه بالصدق والأمانة (**وجه أخلاقي**)؛ وحوالي 25% يرون الأولوية في معاملته مع الآخرين (المعاملة الحسنة، واحترام صلة الرحم مع الأقارب والعائلة - **وجه اجتماعي - علائقي**). كما تجدر الإشارة إلى أن الإيمان الديني والأيدولوجية الدينية كلاهما وثيق الارتباط بالتقسيمات المذهبية والطائفية، إذ نادراً ما نجد التدين في صيغته الدينية النقية بقدر ما نجده في صيغته الطائفية - المذهبية.

<sup>6</sup> المؤشر العربي، مصدر مذكور. هذه النتائج تنطبق على كل الفترة بين 2012 و2020.

باختصار، سوف نجد أن الدين لا ينفرد بكونه الفاعل الأول بشكل مستقل عن عوامل أخرى، لا بل إن دور الدين يمكن تفسيره بالتاريخ السياسي والإجتماعي للبلد المعني، وكذلك بخصائص النظام السياسي والأزمات السياسية والتطورات الأخرى. فالتدئين الراهن (الإسلامي على نحو خاص) هو غير التدئين الموروث. إنه تدئين معاصر جداً وأحد تجليات العولمة ومرحلة ما بعد الدولة الوطنية Post Nation State Era.

تشكك **حنان** مهندسة الكمبيوتر الأردنية الشابة في **تدئين الشباب الذكور وترى أنه تدئين شكلي انتقائي** يهدف فقط إلى تعزيز حضورهم في المجتمع كشباب متدئين، كما يهدف بالأساس إلى إحكام السيطرة على النساء. وبرغم أن الثقافة الأبوية كافية تماماً لفرض الهيمنة الذكورية على النساء، إلا أن الغطاء الديني يضيف إلى تلك الهيمنة سطوة مقدسة لا تقاوم وتضعف من مقاومة النساء وأحياناً كثيرة تجمدها تماماً.

"...هَدَدت بالطلاق حين رغبت في خلع الحجاب ووجد زوجي دعماً كاملاً من ذكور عائلتي. والغريب أن زوجي لا يصلي، ويشرب العرق (نوع من الكحول)، لكنه لا يترك سبحة الصلاة من يده، ويستدعي الله في كل حواراته كما لو أنه يصدق أن أفعاله بوحى من الله!"

حنان - مهندسة كمبيوتر، الأردن.

**إن هذه الوظيفة للدين - تحصين الثقافة والسلوكيات والعادات والتقاليد من جهة، وحصين السلطة السياسية أو السلطة الاجتماعية أو أي سلطة أخرى - تتكرر في كل المجالات ونجد أشكاله الأكثر جلاءً وتطرفاً في الفضاء الافتراضي حيث نجد أكثر التصورات الدينية تطرفاً التي تستخدم بشكل متكرر من أجل تبرير المواقف المسبقة من كل نوع.**

### 3. المساواة بين الجنسين

تشكّل النظرة الدونية إلى المرأة ومكانتها وأدوارها خاصة رئيسية في أيديولوجيات السلطات الحاكمة لاعتبارات سياسية بالدرجة الأولى. فلا يمكن النظر إلى التمييز الراهن ضد النساء والسعي المستمر للسيطرة عليهن والتحكم بهن وبأجسادهن باعتباره امتداداً خطياً لتقاليد موروثة من حقبات سابقة، بل هو أولاً أفكار وممارسات معاصرة تخدم وظائف سياسية راهنة بحكم كون **الأيديولوجية البطريركية هي في أساس تكون السلطة في هذه البلدان، حيث يستعير الحاكم صورة الأب في حكمه للرعية** (بما ينفي المواطنة)، وتُمنح للأب سلطة مشابهة لسلطة الحاكم في تحكّمه بأفراد عائلته لاسيما النساء وصغار السن. وهذه المقايضة السلطوية تقايز سلطة الذكور على الإناث في المجال الخاص، بسلطة الحاكم المستبد على المجتمع ككل، وعلى الرجال تحديداً في المجال العام. لذلك فإن **المساس بالسلطة الذكورية في الفضاء الخاص (الأسرة، العائلة الممتدة، العشيرة، القبيلة، النطاق المحلي المباشر) يشكل تهديداً مباشراً لمشروعية الحاكم ونظامه، ويهدد بتخلّله**. فالسيطرة على النساء في الفضاءين الخاص والعام هو من ضرورات تغييب الديمقراطية وحقوق الإنسان أو تقييدهما في الدولة وفي المجتمع بشكل عام.

### المرأة والربيع العربي

كتب الكثير مثلاً عن **اختفاء ظاهرة التحرش بالنساء والفتيات في ميادين الاعتصام**، بما في ذلك في بلد كمصر حيث لهذه الظاهرة انتشار واسع. والدرس المستخلص هنا هو الآتي: **عندما كان هناك مئات الآلاف من المواطنين في الشوارع في أيام الحراك في الساحات، اختفى التحرش بالنساء والفتيات. وعندما انكفأ الناس عن الشارع عادت هذه الظاهرة، لا بل استخدمت بشكل ممنهج لإبعاد النساء عن الشارع واستعادة السلطة للسيطرة على المجال العام مجدداً.**

## هنا درسان:

- الأول هو أن افتراض أن التحرش ثقافة شعبية شائعة خاطئ؛  
- والثاني هو أن التمهيد لاستعادة السيطرة السلطوية على الشارع بدأ بإجراء تمهيدي هو طرد النساء ومنعهن من التواجد الفعال في الفضاء العام.

تقول **حنين** (من الأردن): "عشت حياتي في منزل أسرتي أفوض أبي على أبسط حقوقي، بدءاً بدراستي للهندسة التي قوبلت بمقاومة شديدة، وانتهاء برغبتني في الترشح للانتخابات المحلية التي تعرّضت بسببها لأقسى أشكال العنف البدني من أخي الأكبر. والآن زوجي يقوم بدور أبي وإخوتي الذكور. تطورت مهاراتي في التفاوض مع زوجي لكنني في نهاية الأمر أعيش وفق المعايير التي يحددها لي زوجي، ومن قبله المجتمع". في حالة حنين، تعرّضت للعنف الأشد عندما حاولت السعي للعب دور في الفضاء العام (الترشح للانتخابات المحلية) حيث إن هذا مجال ذكوري بامتياز يؤكد الوظيفة السياسية للفكر الذكوري في تكريس الأساس العائلي - العشائري لتكوين السلطة السياسية على المستوى الوطني. بالإضافة إلى تظهير خروج المرأة عن التقليد السائد إلى النطاق العلني الواسع الذي يصعب التساهل معه كما بالنسبة إلى اختيار دراسة الهندسة التي يمكن حصر مفاعيله السلبية في صورة الأسرة في محيطها وتقليل أضراره.

## حقوق النساء بطبيعتها شأن جنسي

تثير هذه المواقف والسجلات أسئلة حول طبيعة الخلفية الفكرية والثقافية التي تستند إليها. وثمة نقطتان هنا:

- **الأولى** أنه أياً كان الموضوع قيد البحث (أسرياً أو شخصياً، أو اقتصادياً أو سياسياً... الخ) فإنه يتحول إلى **موضوع جنسي** (وأخلاقي حسب مفردات أصحاب هذا التفكير). كأن المرأة كائن جنسي بطبيعته وجوهه ما يغطي على كل أوجه النشاط والحياة الفردية والمجتمعية للنساء.

- **والثانية**، هو أن الشأن الجنسي، المعتبر شأنًا أخلاقياً، هو بدوره شأن ديني بامتياز، لذلك **يتم الانتقال ببساطة ودون أي مبهدات من أي وضعية تتعلق بالمرأة إلى الجنس والأخلاق ومنها إلى الدين**. وتبرز مثل هذه المواقف بشكلها الأكثر تطرفاً في الفضاء الافتراضي، حيث لا رقابة، وحيث التباهي بالتسلط الذكوري دون خجل.

## 4. الديمقراطية، المواطنة، وحقوق الإنسان

حصلت ثورات الربيع كلها تحت مطلب سياسي مباشر هو إسقاط الأنظمة ورحيل الحكام بما هو مطلب يكثف غاية الحراك، ومدخله التغيير السياسي بالضرورة، ومآله المرتجى بناء الدولة المدنية الديمقراطية الحديثة. خلافاً للصورة النمطية السائدة، فإن الفكرة الدينية أو الفكرة القومية أو الفكرة الطبقية - الاجتماعية لم تكن هي الأقوى والأصدق تعبيراً عن خيارات المواطنين في هذه البلدان، وهو ما ينسف بالكامل فكرة الإستثناء العربي والإستعصاء الديمقراطي. فالخيار العفوي والطبيعي للناس عندما نجحوا في التحرر من الضغط والقسر المفروض عليهم، كان خيارهم الديمقراطية الدستورية والعدالة والحقوق. أما الخيارات الأخرى الطاغية سابقاً واليوم في أكثر من بلد، فهي المفروضة والطارئة وليس العكس.

## الديمقراطية في استطلاعات الرأي والدراسات

بحسب المؤشر العربي لعام 2019 - 2020 فإن 89% من مواطني المنطقة العربية قادرون على تقديم تعريف ذي محتوى. وبلغت نسبة التأييد للديمقراطية 76% مقابل 17% معترضين. ويرى 74% أن النظام الديمقراطي هو الأكثر ملاءمة لبلدانهم. ويعود جانب من إعاقة التحول الديمقراطي إلى السياق التاريخي اعتباراً من عصر النهضة الأول (نهاية القرن 19) إلى **تهميش الليبرالية (السياسية والاجتماعية) وتقديم الجماعة على**

الفرد والذي أدى إلى ترسيخ الممارسات والثقافة غير الديمقراطية في المجتمع، وأثر سلباً على تكوّن ثقافة بديلة. كما أن إجهاض حركة الإصلاح الديني لصالح استتباع المؤسسات الدينية للسلطة السياسية مهّد الطريق أمام انتعاش التصورات المحافظة والمتشددة للدين. ونرى تجلياً متطرفاً لذلك في الفضاء الافتراضي في السجلات حول قيم الحرية والتسامح والتطرف والإرهاب وما إلى ذلك من قضايا مشابهة ذات صلة بالبعد الثقافي للتحوّل الديمقراطي.

## 5. العولمة والثقافة الاستهلاكية

مقاربة الثقافة في بلدان جنوب المتوسط العربية بحصرها في المكون التقليدي والمحافظ والموروث يجافي الحقيقة. ثمة "ثقافات وخطابات" أخرى، أقرب إلى قيم الحدّثة الكلاسيكية وقيم المواطنة وحقوق الإنسان. كما أن "ثقافة العولمة الاستهلاكية" واسعة الانتشار بدورها، وهي تتعايش مع المكون المحافظ بسلام نسبي. يقدّم تطبيق إنستغرام صورة عن المجتمع والشباب مختلفة عن صورة المتشدد الديني، أو عمّن يتماهى بالجماعة والتقاليد ولا يقدر أهميته كفرد، أو عمّن يعطي أولوية لانتمائه المواطني وفعاليتيه الاجتماعية والسياسية. نحن هنا في صلب ثقافة الاستهلاك المعولمة، وهي واحدة من مكونات الصورة الحقيقية لمجتمعات جنوب المتوسط وثقافتها/ثقافتها.

ويحلل التقرير استخدام تطبيق إنستغرام ومضامينه في فلسطين والجزائر وتونس، وتوصل إلى الإستنتاج أن الثقافة الاستهلاكية المعولمة واسعة الانتشار في هذه الدول. ويبلغ عدد متابعي صفحتين فرديتين لشباب (فاروق) وشابة (مرؤى) من الجزائر تتضمن مواضيع خفيفة وترفيهية واجتماعية عامة وتسويقية، حوالي 5 ملايين شخص؛ وصفحة بيكي من تونس التي تروج لمواد تجميل يتابعها 1.4 مليون شخص؛ وصفحة الشقيقتان هيا ومرام من فلسطين لديها مليون متابع؛ ومحمود العيساوي من فلسطين أيضاً يتابعه 1.8 مليون شخص... الخ. وعندما نقارن مثلاً مع صفحة AJ+ بكل إمكاناتها التي يتابعها 11 مليون شخص وهي صفحة إقليمية - عالمية مدعومة من قبل مؤسسات إعلامية (الجزيرة) وجهات منظمة تملك إمكانات كبيرة، فهي لا تبلغ سوى حوالي ضعف عدد متابعي فردين جزائريين فقط (فاروق ومرؤى)، مع العلم أن صفحات التواصل الاجتماعي في الجزائر التي حلل مضامينها التقرير، احتوت على أكبر عدد من التعليقات المتطرفة في الدين، والهوية، والعداء للغرب، ورفض المساواة بين الجنسين والديمقراطية... الخ. ويجب أن نضيف أيضاً أن كون بعض صاحبات هذه الصفحات محجبات، لم يكن عاملاً مؤثراً يحول دون الإنتساب إلى الثقافة الاستهلاكية هذه، بل هو يتعايش معها بشكل طبيعي. وهو ما يظهر أن التفسيرات الأحادية للباس الحجاب واعتباره تعبيراً ثقافياً متسقاً عن نمط الحياة، لا تخلو من التبسيط. كل هذا يجب أن يدفعنا للتساؤل عن الصورة النمطية التي تفترض أن التفكير التعسبي بمختلف تجلياته هو الممثل الحقيقي شبه الحصري للمجتمعات العربية وثقافتها.

## الفصل الرابع: دراستي حالة من المغرب ولبنان (المدخل "المكاني")

يعتمد هذا الفصل المدخل "المكاني" للتحليل، ويتضمن دراستي حالة، الأولى من المغرب وتخص المدينة القديمة في مدينة الدار البيضاء؛ تركّز على تطور المدينة القديمة والتراث المادي واللامادي والسياسات العمومية في التعامل معها؛ والثانية من لبنان وتخص مدينة طرابلس وتركز على مشكلات الهوية والصورة النمطية للمدينة كمعقل للتطرف الديني وتظهر الحيوية الثقافية التي تناقض هذه الصورة.

### أ- المدينة القديمة في الدار البيضاء

للمدينة القديمة دور رمزي هام لكونها تمثل مكوناً هاماً من هوية المدينة وتاريخها ومخزونها العمراني والثقافي والإجتماعي. كما أن طريقة التعامل معها والتحويلات التي تطرأ على موقعها في النسيج المدني العام وعلاقتها بالقسم الحديث، تظهر جوانب هامة من التعامل الحكومي والشعبي مع الثقافة بحكم ما تمثله المدينة القديمة من تجسيد حيي للثقافة التاريخية وما طرأ عليها من تحولات مع الخروج من أسوار المدن القديمة إلى فضاء المدن العصرية والمعولمة.

تبدلت النظرة إلى المدينة القديمة ووظيفتها وقيمتها وفق مرحلتين:

- **المرحلة الأولى** تميّزت بتعظيم فهم معين للحدث والعصرنة وتراجع الاهتمام بما تمثله المدينة القديمة كقيمة ثقافية وتراثية وكدور اقتصادي أيضاً، لاسيما مع توسع التجارة والأنشطة الاقتصادية الحديثة الخدماتية والصناعية، مقابل الطابع الحرفي والأنشطة التقليدية التي كانت تمثلها المدينة القديمة. في هذه المرحلة تدهورت البنى التحتية ونوعية الحياة فيها، وأهملت معالمها العمرانية أو دمرت واستبدلت، حيث أمكن بما يخدم الأنشطة التجارية والاقتصادية الجديدة.

- **المرحلة الثانية تميّزت بعودة الإهتمام بالمدينة القديمة** لسببين رئيسيين، أولهما تلافياً لعدم استقرار اجتماعي وسياسي ناجم عن تدهور الأوضاع والتهميش والتفاوت الاجتماعي الحاد. **والسبب الثاني هو إعادة اكتشاف أهمية التراث والثقافة كنشاط اقتصادي وكعامل جذب سياحي هام جداً.**

وفي هذا السياق يمكن النظر إلى مشروع إعادة تأهيل "المدينة القديمة" الذي انطلق عام 2011. ويتضمن هذا المشروع عدداً من الإيجابيات من حيث أهمية استراتيجيته وأيضاً باعتباره مشروعاً استهدف البنيات كما الإنسان، لكنه لم يخرج تماماً عن المقاربات التنموية المعاصرة المطبوعة بالأهداف الاقتصادية في نهاية المطاف.

### عودة إلى السياق الكلي

بعض الاهتمام المستجد بالتراث والثقافة المادية وغير المادية لا يعبر بالضرورة عن تقييم الثقافة بذاتها، ولا إعلاء لدورها التنموي التحديثي والتحويلي للمجتمع. بهذا المعنى تتراجع أهمية الوظيفة التحويلية للثقافة لصالح وظائف أخرى، اقتصادية وتجارية أحياناً كثيرة، وسياسية واجتماعية أحياناً أخرى في خدمة ضمان استقرار أنماط

"... بات التمويل، الحكومي أو الأجنبي، شرطاً لا غنى عنه للنشاط الثقافي المسرحي بشكل خاص، نظراً لما يتطلبه من موازنات ... إن مجمل المناخ الثقافي قد اختلف اليوم، ودخل فاعلون جدد إلى المشهد، وباتت هناك معايير مختلفة لتقييم النجاح والفعالية؛ ومن نتائج ذلك ... تزايد الاستقطاب على حساب التلاقي في مساحات مشتركة وسطية، وهو ما تساهم فيه وسائل التواصل الاجتماعي بقوة، إضافة إلى عوامل أخرى منها المناهج المدرسية والتحويلات السياسية.

نعيمة - مسرحية من المغرب

العلاقات القائمة. ولا يقتصر الأمر على الحكومات الوطنية وحسب، بل إن دخول المانحين والشركات العالمية والمنظمات غير الحكومية الدولية على خط "الاستثمار بالثقافة" يتقاطع أحياناً كثيرة مع هذا التوجه، أو يتعايش معه على أقل تقدير. وفي مواجهة ذلك تبرز ظواهر اعتراضية، بعضها سياسي مباشر (حراك 20 فبراير مثلاً)، وبعضها يتخذ شكل تعبيرات ثقافية فئوية أو شعبية واسعة الإنتشار تحمل مضامين سياسية أو اجتماعية أو ثقافية لها طابع اعتراضية.

## استراتيجية الاحتواء

يشدد الناشطون في المجالين المدني والثقافي في المغرب على الترابط الوثيق بين التطورات في هذين المجالين وأشكال التعبير والعمل والأنشطة فيهما، وبين مسار التطورات السياسية العامة في البلاد. وقد أسست هذه التطورات لفرص جديدة في التحول الديمقراطي، ولمخاطر تهدد هذا المسار في آن. فالتحولات السياسية بعد 2000 حملت معها سعياً لاستيعاب التعبيرات الثقافية "المتمردة" (بالمعنى الثقافي) ومأسستها وتخصيص موقع لها في توجهات الحكومة، أي اعتماد سياسة الإستيعاب كتوجه رئيسي بدل المواجهة المباشرة والتقييد والمنع. وقد تجلّى ذلك في تزايد الإهتمام الرسمي بالمبادرات الثقافية وارتفاع عددها (مثل مهرجان البوليفار BOULEVARD وهو مهرجان لفنون الشارع في الدار البيضاء، ومهرجان الموازين في الرباط، ومهرجان فاس للموسيقى الروحية، ومهرجان الصورة للكنافة وموسيقى العالم، ومهرجانات مراكش وطنجة... الخ)، وهي تحظى برعاية رسمية من السلطات المركزية أو المحلية، وباتت شخصيات عامة وسياسية مرموقة تحتل مواقع هامة في إدارتها.

**على المستوى الشعبي**، تجلّت ذروة النشاط الفني الحرّ عام 2011 في الفترة التي تقع بين حراك 20 شباط/فبراير وتشكيل الحكومة الجديدة، بعد تعديل الدستور، في شهر سبتمبر وتسلّم حزب العدالة والتنمية الإسلامي الحكومة بعد الإنتخابات. فخلال هذه الأشهر الإنتقالية والمتحررة من التقييد حصل ما يشبه الإنفجار العفوي لكل أنواع الأنشطة الثقافية والإبداعية في الشارع والمساحات العامة: بادرت مجموعات إلى تنظيم استعراضات وأعمال فنية، وبعضهم نظم قراءات شعرية مفتوحة، وأنشطة مسرحية، وعرفت الفترة نشاطاً غير مسبق على وسائل التواصل الإجتماعي، ومبادرات من كل نوع (كما حصل في مختلف البلدان العربية أثناء الربيع العربي في موجتيه الأولى والثانية). وقد تعرّضت هذه الحركة للضبط بعد تشكيل الحكومة، ولم يخلُ الأمر أيضاً من استخدام المنع المباشر.

## ثقافة الهوامش

من جهة أخرى، لم تكن الأحياء والفئات الشعبية والمهمشة خارج هذا السياق. ولعبت الملاعب الرياضية دور الحاضن والمحفّز على أشكال أخرى من التعبير الفني من خلال أغاني مشجعي فرق كرة القدم الشعبية، وهي ظاهرة شهدناها أيضاً في دول شمال أفريقيا الأخرى (تونس، الجزائر، مصر)، حيث كانت الملاعب حيزاً للتعبير السياسي الإحتجاجي سبق أحياناً الحراك الشعبي في الشارع، أو تفاعل معه بحيوية فور حدوثه.

## خلاصة

في العقود السابقة على العهد الجديد (1999)، كان الناشطون في المجالين المدني والثقافي لا يخفون الطابع السياسي والتحويلي لحركتهم وأنشطتهم في اتجاهين متكاملين هما الديمقراطية (على المستوى السياسي) وقيم الحداثة (على المستويين الثقافي والإجتماعي). كانت الوظيفة التحويلية هي الأكثر، ولم تكن مقيّدة بعمل منظمات وجمعيات غير حكومية من النمط السائد حالياً، ولا كانت هذه الأنشطة مشاريع ممولة من المانحين. والجيل المخضرم للناشطين يرى أن خطوط التمييز بين الحركة الثقافية

وبين السلطة التي كانت واضحة في السابق، أصبحت ملتبسة ومتداخلة اليوم؛ كما حصل تغيير كبير في طبيعة أساليب عمل الفاعلين، وفي تمظهرات وتعبيرات الحركة الثقافية. ويمكن التحدث عن أربعة مستجدات:

1. دخول قوي للمؤسسة الرسمية في مجالي العمل المدني والثقافي، واستيعاب قسم من هذا النشاط ومن الفاعلين المؤثرين.
2. دخول قوي للأطراف الدولية والمؤسسات التابعة لها، لاسيما المؤسسات الثقافية أو المنظمات غير الحكومية الدولية.
3. تزايد أهمية المواجهة الثقافية داخل المجتمع نفسه بين توجه الحداثة والتوجهات المحافظة في المجال الإجتماعي والثقافي.
4. تنامي مقاربة "المشروع" والتمويل والشراكات مع فاعلين حكوميين وخارجيين، مقابل نشوء ظاهرات ثقافية غير نمطية سواء على الفضاء الافتراضي، أو في الملاعب الرياضية، أو في الأحياء الشعبية، بما يشكل نوعاً من ثقافة المهمشين المقابلة للثقافة.

مقابل كل ذلك، وعلى الطرف الآخر الذي يستعيد الدور التحويلي للثقافة، يشكل الحراك الشعبي (حراك 20 شباط/فبراير في المغرب) حالة ثقافية غير نمطية أيضاً بمعنىين. الأول أنه حراك طرح مباشرة قيم الحداثة والتحول الديمقراطي والمواطنة وحقوق الإنسان؛ والثاني هو أن الحراك نفسه كان فضاء لأنشطة ثقافية وإبداعية مبتكرة وشعبية، وفي وجهة التحول الديمقراطي وثقافة الحقوق بدون أي التباس.

## ب- طرابلس (لبنان) الثقافة في مواجهة الصورة النمطية

تم اختيار طرابلس - لبنان نظراً لصورتها النمطية بكونها بيئة منتجة للإرهابيين، وقد أطلق عليها في مرحلة ما تسمية "قندهار" لبنان؛ وأيضاً لكونها مدينة فقيرة ومهمشة. يطرح ذلك إشكاليات مركبة ذات طابع اجتماعي وثقافي في آن، حول هويتها وصورتها مقارنة بواقعها الفعلي. ففي ثورة 17 تشرين أطلق على طرابلس أيضاً اسم "عروس الثورة" وكانت صورتها نقيض تلك النمطية السابقة (القندهارية) وهو أمر يدفع إلى التساؤل.

## السياق

صنع الخطاب النمطي صورة لطرابلس تتميز بثلاثية **العزل عن لبنان، والطابع الديني الإسلامي، والفقر والتهميش**. إلا أن نظرة موضوعية إلى مسار المدينة وواقعها، تكشف عن حياة اجتماعية وثقافية شديدة الحيوية تمتد لعقود. فقد امتازت المدينة **بحركة ثقافية استثنائية**، سواء على مستوى إصدار الجرائد المحلية (مثل البيان والإنشاء والرقيب والتمدن...); أو على مستوى حركة مراكزها الثقافية وإقامة معارض الكتب السنوية والأنشطة الثقافية والفنية على اختلافها، سواء قبل الحرب 1975، أو خلالها وبعدها، مع تغير في الفاعلين والمؤسسات. في المقابل فإن تداعيات النزاع بين جبل محسن وباب التبانة (في مرحلتيه بداية الثمانينيات، ثم 2007-2014) ألحقت أضراراً كبيرة وخطيرة في الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية، زاداها ضرراً التوجه الربحي لدى بعض الممولين، وكذلك عدم ملاءمة بعض المشاريع الدولية لحماية الإرث الثقافي.

**من الخسائر الفادحة إقفال قاعات السينما** في ساحة التل وعلى امتداد البولفار الذي يفصل بين القسم القديم والقسم الحديث من المدينة. وكانت قاعات السينما في الأحياء الفقيرة قد أقفلت قبل ذلك، إلا أن الإقفال صار معممًا في الثمانينيات مع اختلال الوضع الأمني فيها. وتم هدم مبنى سينما الريفولي لاحقاً، وهو مبنى تراثي على الرغم من الاحتجاجات، وكان قد سبق ذلك هدم مبنى مسرح "الإنجا" التاريخي لأسباب تجارية - عقارية أيضاً (قارن مع المدينة القديمة في الدار البيضاء).

حافظت بعض الأندية والمراكز الثقافية على قدر معقول من النشاط على امتداد هذه الفترة، مع دخول فاعلين جدد يعملون وفق قواعد أكثر عصرية. وفي هذا الصدد يمكن ذكر قصر نوفل الذي كان فيما سبق يشهد على عقد الندوات والمحاضرات وورشات التدريب والعروض المسرحية التثقيفية والموسيقية، وفيه مكتبة عامة يقصدها الطلاب. ومن الصروح الثقافية الهامة أيضاً الرابطة الثقافية، وهي من أهم المراكز الصانعة لتاريخ طرابلس الثقافي، وهي التي كانت ولا تزال تنظم معرض الكتاب السنوي. إلى جانب هاتين المؤسستين كانت هناك مؤسسات هامة أيضاً، منها نادي الجامعيين، والمجلس الثقافي للبنان الشمالي، وجمعيات منتشرة في كل أنحاء المدينة وعمل في كل المجالات بما فيها الجمعيات النسائية والشبابية والبيئية، وأندية السينما، وناد مميّز لسماح الموسيقى الكلاسيكية... الخ، وكذلك أنشطة ثقافية في كل مؤسسات التعليم، إلى جانب فرق مسرحية. ومع الموجة الحديثة من العمل الثقافي المدعوم من أطراف سياسية التي تحظى بدعم دولي أيضاً، أنشأ مركز الصفدي الثقافي في منطقة الضم والفرز، وكذلك تم تحويل مبنى مدرسة الأرمين الأثرية في الميناء إلى بيت الفن وتحوّلت إلى مركز ثقافي بدورها. وهاتان المؤسستان ناشطتان ولكن لهما ارتباط سياسي مع زعماء سياسيين محليين (محمد الصفدي ونجيب ميقاتي) وهي تعمل وفق قواعد مختلفة عن نمط العمل الثقافي التقليدي الذي عرفته المدينة في السابق.

من جهة أخرى، ثمة شأن ثقافي يحظى باهتمام كبير في المدينة مرتبط باحتوائها على إرث عمراني تاريخي وأسواق قديمة لا تزال تشكّل مركزاً تجارياً رئيسياً في المدينة. والمدينة القديمة (قلعة طرابلس، وبرج السباع في الميناء، والخانات، والحمامات، والأحياء القديمة والحرف الموجودة فيها - صناعة الصابون، صناعة النحاس، صناعة الفخار في الميناء... الخ) شكلت موضوعاً لمشروع إحياء الإرث الثقافي في طرابلس، وحظي بتمويل رئيسي من البنك الدولي. وقد أثار هذا المشروع جدلاً كبيراً بين مؤيّد ومعارض، وأخذت عليه ثغرات كثيرة من ضمنها عدم واقعيته، كما أخذ عليه أيضاً عدم لحظه ضرورة ربط الثقافة بحياة الناس ومعاشهم أكثر مما هو ترميم أبنية فقط. ولم يحقق هذا المشروع المرجو منه في نهاية المطاف.

في المقابل، ثمة إرث حديث وحدثي بالغ الأهمية في المدينة هو معرض طرابلس الدولي الذي صممه المهندس البرازيلي العالمي أوسكار نيماير، وهو ذو تصميم هندسي جميل جداً بدأ بناؤه في بداية السبعينيات ولا يزال غير مكتمل ومهملاً حتى اليوم، وهو مثال صارخ على الإهمال والتهميش الذي تعاني منه المدينة، رغم أنه معلم لا مثيل له في لبنان.

## طرابلس عروس الثورة

صحيح أن ثورة تشرين نقطة تحول كبيرة في الوعي والممارسة في لبنان، ولا تخرج طرابلس عن هذا السياق، إلا أن صورتها الجديدة - عروس الثورة - كانت صورة كامنة أو مهيمناً عليها بمعنى ما من قبل الصورة النمطية السابقة التي تبين أنها كانت أحادية ومفروضة إلى حد كبير. ساهمت ثورة 17 تشرين في إبراز الصورة الجديدة وفي صقلها وتطويرها، إلا أنها لم تخلقها من عدم.

## التعبيرات الفنية والثقافية

صورة المدينة المتطرفة أول ما تعبّر عن نفسها في حجب الفنون والتعبيرات الفنية على اختلافها. وقد عرفت المدينة أشكالاً حديثة من التعبير الفني تجاوزت أشكال العمل الثقافي التقليدي السابقة. ومن الظواهر الفنية البالغة الأهمية تأسيس "كورال الفيحاء" وهي جوقة عالمية (أكابيللا) غيّرت حياة العشرات من شباب طرابلس، ورسمت صورة مغايرة تماماً للتطرف والانغلاق، وقد تأسست عام 2003، ورفعت اسم طرابلس إلى مصاف العالمية.

"... انتسبت إلى الكورال منذ عشر سنوات. قبل ذلك كانت حياتي في طرابلس عبارة عن الخروج إلى المقهى ولعب "ورق الشدة" والتدخين، كما كنت أميل إلى الأفكار المتطرفة... وخلال معارك جبل محسن - باب التبانة، كنت أدرب الشباب على حمل السلاح، وأتباهى بمعرفتي بفنون القتال. اليوم أشعر بفخر كبير حين أحكي عن تجربتي، بعد أن اختبرت تحولاً عميقاً من شاب كان مشروع عاطل عن العمل أو إرهابي، إلى شاب صار موسيقياً ويعلم الموسيقى وينشر ثقافة السلام والتعايش والتنوع، وهذا التحول لم يكن سهلاً".

محمد فواس (35 سنة)، هو اليوم أستاذ موسيقى ولديه معهد في طرابلس يعلم فيه الموسيقى للأطفال.

تجربة أخرى لا تقل أهمية هي "مهرجان طرابلس للأفلام"، وهو تظاهرة سنوية أطلقها الياس خلاط عام 2014، أيّ مع انتهاء معارك جبل محسن - باب التبانة وتنفيذ الخطة الأمنية في طرابلس. ساهم هذا المهرجان في تغيير وجه طرابلس كمدينة مهمشة ووضعها على خارطة التظاهرات الثقافية الهامة على مستوى لبنان، مع إطلاقة إقليمية وعالمية. ذهب المهرجان بالسينما إلى الأحياء الشعبية والمهمشة التي يعيش أبنائها في فقر مدقع، عالدرج"، أي عروض الهواء الطلق على الأدرج الداخلية في جبل محسن وباب التبانة وحي الشعرائي، حيث عُرضت بعض الأفلام التي جرى انتقاؤها بعناية فائقة تخاطب شبان وشابات هذه المناطق، وتعمّم ثقافة السينما في الأحياء الشعبية.

## العمل المدني أيضاً

المواجهات المتكررة على محاور جبل محسن - التبانة - المنكوبين - القبة تركت بصماتها على مجمل نواحي الحياة في مدينة طرابلس. كما شكّلت حافزاً لمبادرات كثيرة اختارت المدخل الثقافي والمدني للتعامل مع هذا الإنقسام العنيف والحاد في المدينة، وتجاوز آثاره، لاسيما مع وقف المعارك العسكرية وتطبيق الخطة الأمنية عام 2014، الأمر الذي أفسح مجالاً للعمل الميداني في المنطقة ومع شبابها.

على خطّ التماس الفاصل بين جبل محسن وباب التبانة، يقع مقرّ جمعية "رواد التنمية" في شارع سوريا، وللمركز مدخلان الأول لجهة جبل محسن، والثاني لجهة التبانة، وهذا ترتيب عملي فرضه موقع المقرّ ويسمّح للشبان المتواجدين فيه بالعودة كلّاً إلى المنطقة التي يسكنها من دون التعرض للخطر في حال اندلعت اشتباكات وعلقوا في وسطها. ساهمت أنشطة هذه الجمعية التي كانت تقدّم منحاً للتعليم للشبان والشابات مقابل عمل اجتماعي بين منطقتي النزاع في تحويل حياة عدد غير قليل من أبناء المنطقة. كذلك فعلت جمعية "مارش" التي اختارت مدخلاً ثقافياً في العمل لتحقيق أهداف مشابهة في المنطقة نفسها. فأقامت مشروع "قهوتنا" عام 2016، وهو مقهى فني - ثقافي على خط التماس يجمع شبان وشابات من جبل محسن وباب التبانة والقبة الأكثر تأثراً بالنزاع المحلي، واستخدمته كمنصة انطلاق لجلسات حوارية ونشاط فني ومسرحي، ولقاءات مفتوحة بين الشباب ومع ناشطين وفنانين لبنانيين معروفين بتنظيم من الجمعية. وتوضّح رئيسة الجمعية ليا بارودي أن "الفن استطاع أن يحوّل العداء إلى صداقة بين أبناء المنطقتين من خلال قهوتنا. اجتمعوا في البداية على المشاركة في تأليف وتقديم مسرحية "حب وحرب على السطح" المستوحاة من حياتهم (عام 2015)، وكان أكثر الشباب المشاركين في المسرحية، سبق لهم أن شاركوا في معارك الإقتال إبان جولات العنف في المدينة. وتلا ذلك أنشطة من أنواع مختلفة، من ضمنها مهرجان ثقافي فني على خط التماس استقطب مشاركة من أبناء المدينة من الأحياء الأخرى، الذين مضت سنوات ولم يزوروا باب التبانة.

## أنشطة ساحة الاعتصام

طرابلس كانت أول المدن المبادرة إلى إنزال صور "زعمائها" التقليديين ونوابها ووزرائها الحاليين والسابقين من دون استثناء، وهو تعبير عن خروج عن عبادة الولاء التقليدية. وهذه ظاهرة لا يوجد مثيل لها في أي منطقة أخرى من لبنان في أيام الثورة. وحافظت ساحة الاعتصام فيها على زخم جماهيري وقدرة على التجدد على

امتداد أسابيع وأشهر بطريقة متواصلة. كما شهدت أنشطة ومبادرات ثقافية متعددة مثل مبادرة الناشط **عبدة تكريتي** (29 عاماً) لإنشاء خيمة حوار ملاصقة لساحة النور، وأطلق عليها اسم "**ساحة ومساحة**" التي كانت الأولى بين خيم حوارية كثيرة في الساحة، وقد تحولت لاحقاً إلى ندوات حوارية افتراضية.

## مشاركة نساء طرابلس

يحتل هذا الأمر في طرابلس أهمية إضافية. فطرابلس كما كل لبنان يسود فيها العقل الذكوري المقيّد للمرأة وحريتها ودورها، يضاف إلى ذلك أن فرض هوية دينية محافظة ومتطرفة عليها خلال العقود السابقة شكل عنصر قمع وكبح إضافياً لمساهمة المرأة، إضافة إلى الفكرة السائدة أن الفئات الفقيرة والشعبية هي قليلة الإهتمام بقضايا مثل تحرّر المرأة وتعزيز مشاركتها، لاسيما إذا اقترن الفقر مع حروب بين الأحياء ونزاعات مستمرة من شأنها أن تزيد من احتمال العنف الأسري والتفكك ومشكلات لا حصر لها.

التحولات التي أحدثتها انتفاضة 17 أكتوبر في طرابلس، طالت أوضاع النساء أيضاً، فبرز حضورهن في الفضاء العام من مختلف المناطق والطبقات. وفي أحد أيام الإنتفاضة، وتحديداً يوم 10 تشرين الثاني/نوفمبر سجّلت طرابلس مسيرة نسائية كبيرة (آلاف المتظاهرات والمتظاهرين).

## خلاصة

مثال طرابلس يظهر التناقض الصارخ بين الصور النمطية عن المدينة وسكانها التي شاعت إلى حدّ اعتبارها من المسلمات البديهة، وبين حقيقة المدينة وهويتها الفعلية. وهيمنة الصورة النمطية لا تكون عادة دون أساس أو مفتعلة بالكامل. إلا أن ذلك يشكو من خطأين كبيرين: **الأول** إغفال الظروف التي أدت إلى تشكل هذه الصورة النمطية، والتي غالباً ما تكون ظروفًا طارئة وقسرية (نزاع أهلي مسلح في المدينة على خلفية سياسية إقليمية امتد بشكل متقطع بين 1980 و2014)؛ **والثاني** تزوير تاريخ المدينة وحاضرها الثقافي والمديني الغني والمتنوع، في خدمة الاستخدامات السياسية الراهنة.

إلا أن ما يبينه مثال طرابلس، هو أن الحالة الطبيعية التي تعبر عن **الخيارات العميقة للناس لا يمكن إلا أن تكون خيارات التنوع والحرية والثقافة، وأن التطرف مفروض وقسري ومؤقت**. وما ينطبق على طرابلس ينطبق على الأرجح على جميع المدن والأرياف في كل بلدان المنطقة، كما بيّنت ذلك بعض شواهد القسم الموضوعاتي من التقرير.

## الفصل الخامس: خلاصات

### معيقات

رصد البحث وجود معيقات متعددة لقيام الثقافة بدورها الفعال في التحول الديمقراطي. بعض هذه المعوقات يقع داخل حقل الثقافة نفسها ويتمثل في استراتيجيات الهيمنة الثقافية، أو الإنغلاق والتقوقع، أو التعصب، أو تغليب الصور النمطية، أو تسييس الثقافات واستخدامها الأدوات في خدمة المشاريع السياسية للسلطات أو الأطراف السياسية المعنية.

ثمة ثانياً معيقات من خارج حقل الثقافة، أولها ما يتعلق بالسلطة السياسية نفسها، حيث العلاقة بين الثقافة والسلطة السياسية تصطبغ دائماً بصباغ السلطة صاحبة الأمر في البلاد. والسلطة السياسية "لا تنظر (...)" بعين الرضا إلى الثقافة على خلفية الشعور - الذي لا يخلو من الصحة - بأنها تمثل سلطة موازية تضاهي قوتها مادياً ورمزياً. وهو ما يتضافر مع وعيها أن مشروع سلطة سياسية جديدة يبدأ دائماً من مدخل ثقافي". ومن ممارسات السلطة النمطية في هذا المجال ممارسة الرقابة (القبليّة، والبعدية، وصولاً إلى الرقابة الذاتية التي تتحول إلى سلوك وقائي ذاتي). ومن الممارسات أيضاً اللجوء إلى استراتيجيات الإحتواء، بما يعطل الوظائف التحويلية للثقافة ويضعها تحت هيمنة السلطات عموماً بطريقة "لطيفة وقانونية"، وفي الحالات المتطرفة تلجأ السلطات إلى القمع المباشر الذي يتخذ بدوره أشكالاً متفاوتة الشدة والقسوة. من جهة أخرى، فإن العولمة الراهنة تساهم بدورها في تعطيل الوظائف التحويلية للثقافة وتوجيهها في وجهة استهلاكية. فالعولمة تعمل على تأحيد الثقافات خدمة للتسويق الإستهلاكي لأنماط العيش، بالإضافة إلى تهميش وطمس الثقافات المحدودة الانتشار والقدرات.

### خلاصات عامة

نشير في ما يأتي إلى بعض الخلاصات التي توصل إليها التقرير:

**1- تجنب التعميم وتجنب الإقتصار على تقييم الوضع الثقافي وعلاقته بالتحول الديمقراطي من خلال مصدر واحد مهما كان مهماً.**

**2- ثمة تفاوت في الصورة المهيمنة على المشهد الثقافي العام حسب المصادر المتعددة. إن الملاحظة العلمية وتحليل خطاب الثورات العربية وتحليل الوقائع يعطي صورة أكثر إيجابية، ويرجم أن الحالة الممثلة لخيارات الناس المتحررين من القمع والضغط وحينما كانوا بأعداد كبيرة في الشارع، تميل بوضوح إلى الفكرة المدنية والمواطنة والحقوق والكرامة، أكثر مما تظهره الدراسات الميدانية واستطلاعات الرأي. وهذه الأخيرة تظهر تنوعاً في الإتجاهات على قدر من التوازن يزيد عما هو عليه الأمر في تحليل مضامين وسائل التواصل الاجتماعي حيث تغطي المواقف المتطرفة.**

**3- تحليل وسائل التواصل الاجتماعي (بما في ذلك انستاغرام) يخالف أيضاً الصورة النمطية عن الهيمنة الأحادية للثقافة المحافظة والتقليدية في الفضاء الافتراضي، وتدعم فكرة للحضور الكبير أيضاً للثقافة الإستهلاكية المعولمة.**

**4- تبين أن هناك مستوى كبيراً من عدم الإتساق في منظومة القيم والأفكار التي تتبناها المجموعات والفئات المختلفة، بما يجعل إطلاق الأحكام المعممة مفضلاً.**

**5-** إن التيارات التي يمكن تصنيفها ضمن فئة التوجهات المدنية والمواطنة وحقوق الإنسان والتنمية، لا تظهر كجماعات منظمة وفاعلة بقوة في الفضاء الافتراضي، ونسبياً في فضاء الدراسات والأبحاث، إلا أنها كانت - بناء على الملاحظة - هي الأقوى وهي السائدة في لحظات التحرر العفوي من القيود والقسر، وفي لحظات التواجد الجماهيري الكثيف في الشارع. ويبدو أنه مع الإنسحاب من الشارع والانتقال من التحرك العفوي إلى العمل من خلال المؤسسات (بما في ذلك الانتخابات) انحسر تأثير هذه الأفكار لصالح الأنماط الأخرى. ولا نملك جواباً شافياً على هذه الظاهرة، إلا أنها تقتضي التأمل والبحث المعمق، بما في ذلك عدم اقتصار التحليل على استخدام مفهومي الديمقراطية التمثيلية والديمقراطية التشاركية، في حين تبدو ثورات الربيع العربي أقرب ما تكون إلى نوع من الديمقراطية المباشرة. وهذا ما يحتاج إلى تحقق وبحث لاحق.

### توصيات للفاعلين المدنيين

من الضروري تعميق المعرفة بالعوامل الثقافية عند تنظيم أي نشاط في بيئة معينة، ووضع تصوّر للأثر المباشر للمشروع وتحديد التحديات التي يمكن أن تفرضها هذه العوامل على المشروع. يجب كسر النمطية في التفكير السائد دون الوقوع في التعميم المضاد. يتطلب ذلك العمل مع مجموعات محلية لتحديد الأولويات انطلاقاً من الواقع المحلي من دون فرض نظرة نمطية مسقطة على البيئة المعنية.

التنبه إلى مخاطر وتداعيات الفضاء الافتراضي العدوانية في بعض الأحيان التي قد تؤثر سلباً على نجاح مشروع معين يحاول أن يكسر بعضاً من الصور النمطية والأحكام المسبقة لصالح تعميم ثقافة الحقوق.

الإنطلاق من فكرة أن الناس تتوق إلى التغيير وتريد التنوع، وليست هي منغلقة على ذاتها، وتصورها لهويتها مركب ومنفتح على إمكانيات التطور، والإستناد إلى السياقات التاريخية والمجتمعية، وإلى التجارب الناجحة في هذا المجال.

# الثقافة والتنمية والتحول المجتمعي نحو الديمقراطية

## ملخص التقرير النهائي

